مفكرون أميركيون يتساءلون: لماذا يجب أن نغادر العراق ولماذا يجب أن لا نغادره؟/ ١ - ٢

عن (ميدل ايست اونلاين)

يدور جدل كبير في أوساط السياسيين والمفكرين والعسكريين الأميركيين حول ضرورة انسحاب القوات الأميركية المتواجدة في العراق من عدمه، ويرى الفريق المؤيد لفكرة الانسحاب من العراق أن على أميركا الإقرار بفشلها في العراق وينحون باللائمة على ادارة الرئيس الأميركي لهذا الفشل بل حتى لقرار شن حرب على دولة كانت مستقرة كالعراق.

وعلى الجهة المقابلة يرى الفريق المعارض لانسحاب القوات الأميركية من العراق أن النصر في العراق ما زال ممكنا وأن الانسحاب يعني انتصار القوى الإرهابية وأنظمة الحكم الديكتاتورية في المنطقة، كما أن هذا الانسحاب سيعني انهيار صورة الولايات المتحدة كقوة عظمى.

وقد ارتأينا أن نضع بين أيدي القراء حجج كل من الفريقين:

لماذا يجب أن نغادر العراق؟

أعد تيد غالين كاربينتر، نائب رئيس معهد كاتو لدراسات الدفاع والسياسة الخارجية تقريرا حول ضرورة رحيل القوات الأميركية عن العراق وقد قام كاربينتر بعرض التقرير أمام لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية في الحادي عشر من يناير الماضي. ويعرض تقرير واشنطن هذه الشهادة لأهميتها الكبيرة.

الهروب من المأزق

أعرب الباحث في بداية تقريره الذي جاء بعنوان "الهروب من المأزق: لماذا يجب على الولايات المتحدة الخروج من العراق؟" عن تشاؤمه من أفاق الوضع في العراق إذا استمرت السياسة الأميركية الراهنة قائلا إن التفاؤل بشأن مهمة الولايات المتحدة في العراق قد بدأ يتضاءل بشدة على مدار الأشهر القليلة الماضية، إذ أقرت مجموعة دراسة الأوضاع في العراق بأن الوضع هناك "خطير ومتدهور". كما جاء تقرير وزارة الدفاع الأميركية، الذي قدم للكونغرس في نوفمبر ٢٠٠٦ راسما نفس الصورة الكئيبة. ومع ذلك يرفض مؤيدو الحرب الاعتراف بما بات واضحا وهو فشل الاحتلال الأميركي للعراق ومهمة نشر الديمقراطية. وقد أصبح من الضروري توجيه الأسئلة الآتية للإدارة وصقورها، متى سيعترفون بأن تكاليف هذه المغامرة أصبحت غير محتملة؟ وإلى متى ستظل قواتنا في العراق؟ وكم عدد الدولارات المأخوذة من الضرائب التي يرغبون في صبها في العراق؟ والسؤال الأهم هو كم عدد الأرواح الأميركية الأخرى التي سيضحون بها؟.

الوضع الأمني الأليم في العراق

وفي تعليقه على الوضع الأمني في العراق قال كاربينتر إن الوضع الأمني سواء وصف الوضع في العراق بأنه حرب أهلية أم غير ذلك، فإنه وضع غير عادي وفوضوي. فطبيعة العنف في هذا البلد قد تحولت منذ تفجير المسجد الذهبي بسامراء في شباط من العام الماضي. وأصبح الصراع الطائفي الآن مفتوحا وانتقل من بغداد إلي مناطق أخرى. وقد أشارت مجموعة دراسة الأوضاع إلى أن هناك أربع محافظات من المحافظات العراقية الثماني عشرة "غير آمنة على الإطلاق"، وهي المحافظات التي يقطنها حوالي ٤٠ بالمائة من السكان. كما سلط تقرير مجلس الأمن المقدم في نوفمبر ٢٠٠٦ الضوء على عدد القتلى المتزايد، الذي وصل إلى حوالي ١٢٠ قتيلا في اليوم الواحد. وأصبح هناك ١,٦ مليون "لاجئ داخل البلاد" ممن فقدوا منازلهم، حسب إحصائيات الأمم المتحدة، بينما فر ١,٨ مليون عراقي إلى الخارج. وتزداد معدلات النزوح حيث وصل عدد اللاجئين الذين يغادرون العراق إلى ٣٠٠٠ لاجئ يوميا.

طبيعة العنف المعقدة

الاضطراب المتصاعد في العراق ليس مجرد عنف طائفي بين السنة والشيعة فقط بالرغم من أن تلك هي الفكرة السائدة، إذ يدور الصراع في كركوك بين الأكراد والعرب والتركمان، أما في البصرة والجنوب فإن العنف يتمثل في الصراع داخل صفوف الشيعة. وقد أشارت مجموعة دراسة أوضاع العراق إلى أن "معظم المدن العراقية فيها خليط طائفي وأنها ابتليت بالعنف المستمر، وقد حذر رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي من أن الصراع في مناطق عدة قد يصبح صراع شيعة ضد شيعة أو سنة ضد سنة". والخلاصة هي أن الولايات المتحدة سقطت في مستنقع، في بلد على شفا حرب أهلية متعددة الأطراف ومعقدة للغاية، وترغب جميع أطيافها، ما عدا الأكراد، في رحيل القوات الأميركية.

المزيد من القوات يعني المزيد من الضحايا

زيادة عدد القوات في العراق ما هي إلا محاولة لإنقاذ المهمة الخاطئة، وما هي إلا زيادة في عدد الضحايا على المدى القصير دون تحقيق نتائج أمنية بارزة على المدى الطويل. كما أن عدد القوات المقترح إرسالها أقل بكثير من العدد المطلوب، إذ يخلص دائما الخبراء المتخصصون إلى أنه لكي تتحقق نتائج فعالة يجب أن يكون هناك عشرة جنود لكل ١٠٠٠ مواطن، في حين يقترح خبراء آخرون أنه في حال مثل العراق، حيث يتصاعد العنف ويزداد حدة، تصل الحاجة إلى ٢٠ جندي لكل ١٠٠٠ مواطن. لذا قد يتطلب الأمر إرسال ٢٦٠,٠٠٠ جندي إلى العراق التي يبلغ تعدادها ٢٦ مليون نسمة، وقد يصل العدد إلى ٥٢٠,٠٠٠. مبررات واهية رد كاربينتر في تقريره على أسباب تخوف أنصار الحرب من الانسحاب من العراق قائلا إن أنصار الحرب قد قدموا أسبابا متنوعة لبقاء القوات الأميركية في العراق، والتأثير الضار للانسحاب على الولايات المتحدة، وجميع تلك الأسباب واهية، وهي:

احتمالية استيلاء القاعدة على العراق

حذر مسؤولو الإدارة وأنصار الحرب مرارا من أن الانسحاب "المبكر" من العراق سوف يمكن القاعدة من تحويلها إلى ملجأ لتدبير المؤامرات وشن هجمات علي الولايات المتحدة ودول غربية أخرى. لكن هذا السيناريو بعيد تماما، إذ يبلغ عدد المقاتلين الأجانب في العراق ١٣٠٠ مقاتل فقط كما حددته مجموعة دراسة الأوضاع في العراق، ومن الصعب تخيل أن باستطاعة مثل هذا العدد الضئيل الاستيلاء على بلد يبلغ عدد سكانه ٢٦ مليون نسمة. كما أن القاعدة لا تحظى سوى ببعض الدعم من بعض الأطراف في العراق، وحتى بالنسبة لهذه الفئة فإنه لا يوجد اتفاق في وجهات النظر بخصوص القاعدة، حيث أظهرت نتائج استطلاع أجراه برنامج حول اتجاهات السياسة الدولية بجامعة ميرلاند في سبتمر ٢٠٠٦ أن اتجاهات ٩٤ بالمائة من السنة لا تؤيد القاعدة.

وقد أظهر الاستطلاع أيضا أن ٩٨ بالمائة من الشيعة و ١٠٠ بالمائة من الأكراد من عناصر العينة مناهضون تماما للقاعدة.

أما الفكرة التي تقول بأن وجود حكومة عراقية تسيطر عليها أغلبية شيعية كردية سوف تجعل العراق ملاذا آمنا للقاعدة فهي فكرة غير مقبولة، لأنه حتى بعد رحيل القوات الأميركية ستظل الحكومة العراقية حكومة شيعية كردية، حيث يشكلون أكثر من ٨٠ بالمائة من عدد سكان العراق.

تشجيع الإرهابيين في جميع أنحاء العالم

ادعى الرئيس بوش أن الانسحاب المبكر من العراق من شأنه تشجيع القاعدة والمنظمات الإرهابية الأخرى، وقال إن ضعف المواجهة الأميركية لتلك التحديات خلال ربع القرن الماضي، خاصة في لبنان والصومال شجع هؤلاء الإرهابيين. نعم لقد تعلمت القاعدة والمنظمات الإرهابية الأخرى من درسي لبنان والصومال أن زعماء الولايات المتحدة والشعب الأميركي على حد سواء لا يستطيعون تحمل المهام التي تخلف عدد كبير من الضحايا، وقد يتعزز هذا الاستنتاج إذا انسحبت أميركا من العراق دون تحقيق نصر بارز. لذا لا يجب القيام بأي مهام عسكرية إن لم يكن هناك خطرا حقيقيا يهدد أمن الولايات المتحدة. فأعداء أميركا سوف يصورون الانسحاب الأميركي على أنه هزيمة للسياسة الأميركية، لكن بقاء القوات لمدة غير معلومة أسوأ بالنسبة لبلادنا. وعلى الرئيس بوش أن يدرك أن بقاء القوات قد لا يحقق أهداف سياسته، مع بقاء زيادة الخسائر البشرية والمالية.

فرضية تجاوز الصراع الحدود العراقية وخلق فوضى إقليمية

هذه الفرضية تبدو صحيحة إلى حد ما، فالدولة الإيرانية لديها اهتمامات بالغة بالتطورات السياسية والعسكرية في العراق، ولا شك في أن إيران ترغب في رؤية حكومة عراقية شيعية. لكن جيران العراق الآخريين متخوفون من شبح وجود حكومة شيعية في العراق. فالمملكة العربية السعودية بالأخص تنظر إلى وجود مثل هذه الحكومة عند حدودها الشمالية على أنه لعنة، خائفة من النتائج المترتبة على أقليتها الشيعية التي تتركز في منطقة إنتاج البترول الرئيسة في البلاد.

وهناك مؤشرات على أن الأثرياء السعوديين يمولون بالفعل بعض الجهات المسلحة. وقد يصبح جيران العراق أطرافا في حرب الوكالة الإقليمية الطائفية. وربما تكون المقاربة الأمثل هي أن تعقد الولايات المتحدة مؤتمرا إقليميا تحضره جميع الدول المعنية، بما فيها إيران وسوريا والأردن والمملكة العربية السعودية وتركيا لمواجهة هذا الخطر الذي قد يتحول إلى صراع إقليمي مسلح. وقد يؤدي هذا الفهم الجيد للموقف بالتزام الدول المجاورة بعدم التدخل في هذا العنف المتصاعد في العراق. التخلي عن

الالتزام الأخلاقي أمام الشعب العراقي

يدعي أنصار الحرب أن مغادرة العراق في مثل هذه الفوضى هو عمل غير أخلاقي من جانب الولايات المتحدة. لكن يبدو أن هذا الالتزام لا نهائي، ولا يوجد أدنى شك في أن تلك الفوضى قد تزداد بعد رحيل القوات الأميركية، إلا أن أحدا لم يوضح كيف ستمنع الولايات المتحدة الأطراف المتصارعة من الدخول في حرب أهلية يبدو أن شرارتها قد انطلقت بالفعل. وعلى صعيد آخر، ماذا عن التزام الولايات المتحدة الأخلاقي أمام جنودها والشعب الأميركي؟، فالبقاء ليس إستراتيجية أخلاقية، إنما هو إستراتيجية غير أخلاقية.

تبعات البقاء في العراق

لا شك أن مغادرة العراق لن تكون سهلة دون تكاليف، لكن يجب قياس ذلك الثمن مقابل ثمن البقاء لمدة غير محددة، فمعظم الدلائل تشير إلى أننا نؤجل الهزيمة. تحطيم مكانة أميركا بين العالم أظهر استطلاع أجرته مؤسسة زغبي في ديسمبر ٢٠٠٦ في خمس دول عربية أن العداء لأميركا قد ازداد بدرجة كبيرة في المنطقة. حتى بالنسبة للدول الأوروبية ودول وسط أسيا بما فيهم أصدقاء وحلفاء أميركا فإن وجهة النظر تجاه أميركا أصبحت سلبية جدا، وستزداد المشكلة تعقيدا ببقاء القوات في العراق.

القلق على العسكرية التطوعية

ويضيف كاربينتر محذرا من انخفاض مستوى قدرات الجيش الأميركي قائلا أنه حتى بعض الصقور متخوفون من التأثير السلبي لحرب العراق على مستقبل التطوع العسكري. ففي ديسمبر ٢٠٠٦ حذر قائد أركان الجيش الأميركي بقوة من أن القوة النظامية بالجيش الأميركي قد تتعرض للانكسار ما لم تحدث زيادة مستمرة في بنية هذا الجيش. فالجيش يحاول تحقيق معدلات التجنيد المرجوة، برغم التخفيف كثيرا في المعايير المطلوبة للمجندين الجدد، بما في ذلك التغاضي عن الحالات التي لها سجل إجرامي أو أمراض عقلية. والحقيقة أن الاستمرار في العراق لم يكن ممكنا إلا بسبب الإجراءات الاستثنائية ومنها منع المجندين من العودة للحياة المدنية حتى بعد انتهاء فترة التجنيد، وكذلك استدعاء أعضاء من الاحتياط ومنهم من تجاوز عمره الأربعين وحتى الخمسين عاما. وقد وصل الإجهاد في القوة العسكرية التطوعية إلى نقطة الانهيار، وكلما طال البقاء في العراق زادت تلك الضغوط.

سبّار: مدينة ضمت أقدم مكتبة في العالم القديم

فؤاد يوسف قزانجي*

سبّار "أبو حبة" مدينة سومرية تعود الى الألف الثالث قبل الميلاد، وتعتبر احدى المدن الخمس التي انشأت في بلاد الرافدين قبل الطوفان "٣٤٠٠-٢٨٥٠ق.م"، وكانت واقعة على ضفة الفرات الشرقية قبل ان يعدل مجراه. كانت تقوم في وسطها زقورة عالية مدرجة لا تقل عن خمسين مترا طولا، مشيدة على خمس مصطبات أو أطباق تدعى "اينا-باركا" أي دار عتبته السماء.

يعتبر العثور على مكتبة مدرسة المعبد في سبّار من أعظم الإكتشافات في العراق القديم وربما في العالم القديم فقد عثر فيها على "١٣٠٠٠٠ رقيم" وهي بذلك تكون أكبر مجموعة من الرقم وجدت في مكتبة بالعالم القديم إذ انها فاقت ما وجد في مكتبة نينوى التي وجد فيها أقل من "٥٠٠٠٠" رقيم ومكتبة نبور "٣٣٠٠٠" رقيم، وفي عام ١٩٨٥ وجد الاثاري وليد الجادر مكتبة اخرى في معبد الاله شمش تضم آلاف الرقم معظمها تفتت ولم يبق منها الا "٢٣٠٠" رقيما من بينها سجل بتاريخ ملوك سبّار مثل الملك زبايا "٢٠٠٠ق.م" والملك أدد-إيبلا "١١٠٠ق.م". كما عثر في مدينة سبار على مسلة ولقى اخرى. والمكتبة التي عثر عليها يبلغ طولها ٤,٢٠م وعرضها ٢,٧٠م وعلى جدرانها ٥٦ رفا مبنيا على الحيطان الثلاث وكل رف كان يحوي اكثر من خمسين رقيما، ولكن امكن الاحتفاظ بالرقم المفخورة والاخرى تفتتت حال تحريكها من مكانها. وخلال هذه المجموعات التي زادت علي ١٣٣٠٠٠ رقيم امكن معرفة الكثير عن تاريخ بلاد الرافدين وآدابها الرائعة وما تحتويه من أساطير وملاحم قلما يوجد مثيلها في اداب الحضارات القديمة ما عدا الحضارة اليونانية التي اعتنت بصورة خاصة بالمثولوجيا.

كان لمدينة سبار سور قائم الزوايا له عدة أبواب ممتدة من الشمال الى الجنوب، وقد جدد أبنية المعابد وخاصة معبد "اي-بيار" "اوتو" اله الشمس، الملك نرام سين رابع ملوك السومريين الذي قضى على القبائل الكوتية وانشأ مملكة رافدينية واسعة. كما أعيد بناء سور المدينة بإحكام في زمن الملك البابلي نبوخذنصر الذي أضاف اليه ابراجا للمراقبة، فقد صارت سبار احدى المدن البابلية المقدسة التي كان يخشى عليها من هجمات الميديين. ويذكر د. وليد الجادر ان سبار لا تبعد كثيرا على مدينة "اكد" عاصمة الأمبراطورية الأكدية أول أمبراطورية في العالم والتي لم يعثر عليها لحد الآن، فهناك لقى وجدت في جانب من مدينة اليوسفية الحالية، تدلل عليها.

والجدير بالذكر ان سور المدينة كان قد بناه سرجون الأكدي لكن المدرسة والمكتبة تعود الى السلالة البابلية الاولى "النصف الاول من الألف الثاني قبل الميلاد".

ظلت المدينة مأهولة حتى القرن الرابع قبل الميلاد.

أهم المصادر:

1. قزانجي، فؤاد يوسف. المكتبات في العراق منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر. بغداد: دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٠ "ص ٢٩-٣١".

2. Kazanchi, Fouad Y. Sumerian library- A Remarkable Find. The Baghdad Observer 11/5/1986 "p.6".

3. مكّاي، دوروثي. مدن العراق القديمة، ترجمة وتحرير يوسف يعقوب مسكوني. بغداد: مطبعة شفيق، ط٣/ ١٩٦١ "ص ٣١-٣٢".

* باحث في علم المعلومات والمكتبات.

العلاقات العربية العراقية بين التردد والترقب

أبو حيدر المولى - بغداد

المتتبع لمواقف بعض الأنظمة العربية تجاه الحالة الجديدة في العراق وتحديدا منذ التاسع من نيسان ٢٠٠٣ الى اليوم قد يعطي العذر للعراقيين قيادة وشعبا وحركات سياسية حين يبدون حالة عدم الرضا أو يعتبون على أشقائهم وخاصة الذين لم تبدر منهم اشارة توحي بالوقوف الجاد بجانب العراقيين ليتجاوزوا هذه المحنة، او تحسين علاقاتهم بما فيه مصلحة الطرفين وهموم الشعبين الشقيقين. مع ان جميع الأنظمة العربية قد عانت من تدخلات السلطة السابقة وسياساتها الهوجاء التي جلبت الويلات للعالم العربي بشكل خاص وجعلت من المنطقة العربية ساحة للتدخلات الأجنبية وفرض ارادات قوى عالمية لها أجندتها ومخططاتها في المنطقة.

ومن هذا التصور كان المفروض بجميع الأنظمة العربية تقديم الدعم والاسناد المادي والمعنوي وفي كافة الميادين للحكومة الوطنية العراقية المنتخبة من اجل تثبيت اركان الدولة العراقية الجديدة التي رفعت شعار بناء عراق ديمقراطي حر ينشد الخير والسلام للعالم بأسره وخاصة أشقائه العرب ودول المحيط الاقليمي.

وانطلاقا من هذا المبدأ سعى القادة السياسيون في الحكومة وفي كافة المستويات الرسمية والحزبية الى اعادة العلاقات العربية واصلاح ما خربته السلطة السابقة، حيث دأب المسؤولون العراقيون على مواصلة الزيارات الرسمية للدول العربية واجراء المباحثات البناءة مع اشقائهم بغية تحسين العلاقات العربية العراقية، وكان الاشقاء العرب يظهرون من الود والتعاطف مع الحالة العراقية ما يجعلنا نطمئن ونستبشر خيرا بقرب بدء العلاقات الدبلوماسية على أقل تقدير كون هذه العلاقات تفتح الباب لجميع الحقول السياسية والاقتصادية والثقافية وتوثق الروابط بين تلك الشعوب مع اشقائهم العراقيين، لكن مرور اكثر من ثلاث سنوات ونصف على حالة التغيير في العراق دون ظهور ما يوحي بما يرجوه العراقيون من اشقائهم، ومع كل اصرار الحكومة العراقية على توطيد العلاقة بالدول العربية ظل الصد او التغاضي طابعا مميزا لتلك العلاقة. وعلى الرغم من المناشدات المتواصلة والاستغاثات المتعالية من جميع الاصوات العراقية الرسمية والشعبية التي تستنهض همم كل الاخوة العرب وخاصة المجاورة للعراق بضرورة الوقوف مع الشعب العراقي ولو بضبط الحدود ومنع تحويل اراضيهم الى معسكرات لتدريب الارهابيين، او حاضنات لايوائهم وانشاء الجمعيات لتمويل وتسليح الهجمات التي تنال من العراق وشعبه. مع ادراك كل النظم العربية بأن تلك الاعمال الارهابية التي تجري في العراق تلحق الضرر بالعراق وشعبه دون التعرض للقوات المحتلة الا ما ندر. ناهيك عما تلعبه بعض الفضائيات العربية من تحريض وتأجيج على الفتنة الطائفية دون رادع. ومع كل ذلك ظل العراقيون وما زالوا يفتحون صدورهم مشرعة من اجل عودة العلاقات الى حالتها الطبيعية مع جميع الاخوة كونهم بحاجة لتلك العلاقة مثل حاجة جميع الاخوة لعراق امن مستقر حيث ان استقراره استقرار للمنطقة العربية التي احوج ما تكون للتنمية الاقتصادية والبشرية والاستقرار السياسي عامل مهم للازدهار الاقتصادي للمنطقة العربية المليئة بالثروات والطاقات المعطلة.

ولا شك ان استمرار العمليات الارهابية في العراق لن تعيق مثل هذه التنمية فحسب بل ستمتد الى كل ارجاء المنطقة العربية والشواهد كثيرة حيث ان التكفيريين وأذنابهم لا يفرقون بين مجتمع عربي وآخر.

ان ما يتذرع به البعض من وجود الاحتلال، هم أدرى بأسبابه وبوجوده، والعراقيون "بكافة فصائلهم" رافضون للاحتلال وقد صمموا على انهائه بالطرق السلمية التي يرونها الأنسب والأضمن للحفاظ على دماء العراقيين بعدما اريق منها المزيد سواءا قبل الاحتلال ام بعده.

انها مسألة وقت للخروج بالعراق من محنته وبناء دولته المستقلة وهذا ما أثبتته الخطوات الواثقة لقادة العراق والتي أبعدته عن عهود الطغيان والظلام وجنبته الوقوع في اتون حرب اهلية أرادها له اعداء التجربة الديمقراطية الجديدة.

ان وقوف الاخوة العرب الى جنب العراق في هذه المرحلة سوف يزيدهم شرفا وخيرا لبلدانهم وشعوبهم وازدهارا لاقتصادهم كون العراق يمثل العمق الستراتيجي والاقتصادي لكل اشقائه. خاصة وان الغمة قد انجلت والشدة في طريقها للانفراج.

بين الحب والكراهية

مهدي النجار - بغداد*

يعتقد جميع أبناء الديانات أو المذاهب اعتقادا تاما بان ديانتهم أو مذاهبهم هي الصائبة وهي التي تمتلك الحقيقة دون سواها وبالتالي لا طريق للنجاة بغير طريقها وحصر الفلاح بأتباع ملتها هي فقط. هذه الاعتقادات الوثوقية ناشئة عن عوامل كثيرة مرتبطة بظروف ولادة الشخص ونشأته حيث نرى بشكل طبيعي أن الدين أو المذهب الذي يتبعه الإنسان عادة هو دين العائلة التي ولد فيها، وهذه مسألة بديهية لا ينكرها إلا المتشددون والمتطرفون بآرائهم، وإذا كان من حق الناس الالتزام بدياناتهم ومذاهبهم وعدم التخلي عنها بوصفها تشكل نواة هوياتهم والملامح الأساسية لشخصياتهم فالأحرى بهم من جانب آخر الالتفات إلى أتباع سائر الديانات وجعلهم يفكرون بدياناتهم كما يفكرون هم ولا يجوز تفضيل دين على آخر مجرد الانتماء له، أو بعبارة أخرى ينبغي على من ينظر إلى دينه بوصفه الدين الأمثل والأحق أن يعترف بان أتباع الديانات الأخرى لهم نفس الحق وينظرون لدينهم مثلما هو ينظر، وكما يقول جون هيك، الداعية الأكثر شهرة في بريطانيا والولايات المتحدة إلى التعددية الدينية والحوار بين الأديان: "يجب أن ننظر إلى أتباع سائر الديانات بالعين نفسها، لنستطيع الاستفادة من أفكارهم وحتى من طقوسهم. فلا يجوز لنا النظر إليهم كأعداء ومنافسين، أو احتقارهم. يجب إقامة علاقات ود وصداقة معهم، فقد تمنع هذه العلاقة من الانغلاق الديني الخطر، الفكرة الكامنة وراء جميع الصراعات القائمة اليوم في العالم"، والى نفس المعنى يشير المتنور السعودي أبو بكر احمد باقادر حيث يستنتج بان عصر الوثوقية التقليدية انتهى: "إنما الحل هو كيف احترم دين غيري، حتى ولو كان ذلك يتعارض مع معتقداتي".

حين نتبصر في جوهر الرسالات الدينية سنجد فعل الخير واتيان الأعمال الصالحة هي ما دعت إليه جميعا دون استثناء، دعت إلى الحب والسلام، دعت إلى التواصي بالحق والصبر والرحمة، وبالإحسان والاستقامة، وبالتقوى والشكر، وبرعاية الأمانة وحفظ العهد.. كل ذلك ما اهتمت به الرسالات الدينية، مثلما نهت عن الكراهية والضغينة، عن القتل والظلم والاعتداء، الطغيان والاستكبار، الفسق والزنا، الكذب والنميمة، التبذير والبخل، حب المال والتطفيف.. إنها كلها بمثابة "مصابيح متعددة لنور واحد، إن هذا النور يأتي من الأقاصي" على حد تعبير جلال الدين الرومي- شاعر مسلم عاش في القرن الثالث عشر الميلادي. إنها بمثابة توجيهات أساسية لمعايير السلوك المستقيم والأخلاق الفاضلة التي ينبغي على الإنسان أن يستنبطها ويسلكها، ولم تتوقف أي من الرسالات الدينية بالإنسان عند حد معين لا يتجاوزه بل سعت بالعكس من ذلك إلى أن تفتح له آفاقا رحبة وتحمله المسؤولية كاملة في كيفية العبادة وفي تنظيم حياته، وهو حر لا رقيب عليه سوى ضميره ويشهد على ذلك ما جاء في الحديث النبوي الشريف: "خذوا عني ما جئت به من أمور دينكم، وانتم اعلم بشؤون دنياكم"، وكذلك رفض السيد المسيح الخلط بين الواجبات الدينية والواجبات الدنيوية حيث قال: "علينا أن نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

إن طمس الجوانب المشرقة في الديانات والمذاهب وإنكار طاقات المحبة والإبداع فيها يعكس توجه الفئات المتشددة من الناس التي أعطت لنفسها حق التحدث باسم الدين وخولتها صلاحية التعبير عما في قرارة نفوس الناس حتى شاركت سبحانه وتعالى في علمه بما في الصدور، وأسرفت هذه التيارات المتشددة في نشر مذاهب الكراهية والضغينة والحقد بين أبناء الجنس البشري، ومارست العنف والضغط لحمل الأفراد والجماعات على الالتحاق بمذاهبهم وتياراتهم ورفضت أي تعايش مع الديانات والمذاهب الأخرى، وكفرت المختلفين معها، واستمرت في تشويه الأديان عن طريق إنزالها من تنزيهها المتعالي إلى خضم الصراعات البشرية والأهواء وتضارب المصالح، واستغنت عن العقل والاجتهاد بحجة أن النص الديني ليس فيه للعقل مجال وان العقل عاجز عن إدراك أسرار العقائد وخفاياها.

تدعو مختلف الشرائع إلى الحب والرحمة والتسامح وتعدها سببا لتعالي الإنسان، فقد جاء في الكتب المقدسة العبرية ما يدعو للنظر إلى الجميع بعين واحدة: "أحبوا جاركم كما تحبون أنفسكم"، لويتيسيوس ١٩:١٨.. وجاء في تلمود بليونيان: "اكره لجارك ما تكره لنفسك" هذه شريعة موسى كلها.

وتؤسس المسيحية نفسها على مذهب الحب والتسامح كما جاء في توصيات المسيح عليه السلام: "هذه وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم، ليس لأحد حبٌ أعظمُ من هذا أن يضع احدٌ نفسه لأجل أحبائه"، إنجيل يوحنا/ الإصحاح الخامس عشر.. ولا تختلف عن بقية الرسالات في النظر إلى الجميع بعين واحدة: "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكمُ افعلوا هكذا انتم أيضًا بهم. لان هذا هو الناموس والأنبياء"، إنجيل متي/٦.. ومثل ذلك كان الإسلام يضع الحوار في صلب نداءاته: "ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهُم بالتي هي أحسن أن ربك هو اعلمُ بمن ضلَ عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين" النحل/٢٥.. ونرى هذه التعاليم نفسها، التي بنى المهاتما غاندي حياته عليها، تعاليم الهندوس: "إذا سقاك شخص ماء وسقيته في المقابل ماء، فهذا ليس بعمل مهم. الجمال الحقيقي هو أن تحسن لمن أساء إليك. الإنسان الشريف من ينظر للجميع بعين واحدة ويحسن لمن يسئ إليه"، السيرة الذاتية لغاندي.. وأيضا جاء في التعاليم البوذية: "كما الأم تفكر بابنها الوحيد وترعاه على الدوام، يجب أن يفكر الناس بكل موجود حي ويهتم لأمره"، سوتانيباتا.

من تلك التعاليم والوصايا والنداءات نرى بان الأديان والمذاهب تستند إلى رؤية أخلاقية أساسية وعالمية يجسدها مذهب الحب، ولكن هل يلتزم المتدينون من هذا الدين أو ذاك بتلك الأخلاقيات السامية، وهل سيقدمون أنفسهم كنماذج إنسانية راقية، تتجاوز الانغلاق والإقصاء وتتخلى عن مذهب الكراهية والعنف وتطهر عقولها ونفوسها من البغضاء والضغينة والتعصب، وتنظر إلى الإنسان كقيمة بحد ذاته وتحترمه بغض النظر عن مشروطيته الدينية أو المذهبية أو العرقية؟!.

* من موقع الف ياء.